

دراسة

رؤية الآخر

ملاحظات حول الإستشراق

أحمد طه

تتسم العلاقة بين الثقافات أو الحضارات المختلفة ، بطابع جدلى ، مالم تكن المسافة بينها شاسعة ، والتفاوت مريعاً ، وحينئذ تتخذ العلاقة مساراً واحداً ، من الأقوى إلى الأضعف ، ومن الأكثر تحضراً إلى الأقل .. وهكذا ، وقد ظلت العلاقة بين الشرق والغرب علاقة جدلية تخللتها بعض الفترات الدامية [عصر الحروب الصليبية] ، حتى اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح وإنقطاع التجارة الأوربية عبر الشرق الأدنى ، ثم قيام الدولة العثمانية باحتواء الامبراطورية الإسلامية ، فانعدمت العلاقات الحضارية إلى حد كبير بين الطرفين ، حتى بداية العصر الصناعى ، وظاهرة الاستعمار . وانحطاط الدولة العثمانية ، حينئذ أصبح الشرق مفتوحاً على مصراعيه أمام الإستعمار الأوربى ممثلاً فى انجلترا وفرنسا ، على الأخص ، وبعد أن أصبح الفارق الحضارى بين الشرق والغرب لا يسمح بالحوار بينهما ، منذ هذا الوقت أصبح الشرق « حالة » أو « نموذجاً » للدراسة من قبل أوربا ، وتمت هذه الدراسة عن قرب ، بعد أن كانت دراسة الشرق منذ القرن الحادى عشر تتم بعيداً عن أرضه عبر مملكة العرب الاندلسية قبل وبعد سقوطها .



من لوحات المستشرقين الفرنسيين

فى هذا العصر وخاصة فى القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين كتبت أهم النصوص الاستشراقية ذات السمة العلمية وتم الكشف عن مجموعة من أهم الآثار الصوفية والفقهية والفلسفية والأدبية والعلمية ، تمثل فى مجموعها محصلة للحضارة الإسلامية فى أزهى عصورها .

هذه النصوص حجبت حتى هذا التاريخ نتيجة للتردى الحضارى الذى عاشته منطقة الشرق تحت حكم العثمانيين ومن قبلهم المماليك والدويلات الاستبدادية الصغيرة ، كما كان لمضمون معظم هذه النصوص المنافى لمنظومة القيم السائدة طوال هذه الفترة ، دوراً فى حجبها حتى حققها وكشف عنها المستشرقون الكبار طوال القرنين الاخيرين .

ولعل إيراد بعض منجزات مستشرقى تلك الفترة يبين لنا مدى ما أسدوه ـ فى مجملهم ـ من خدمات للثقافة الإنسانية ولثقافة الشرق على وجه الخصوص .

فمنهم المستشرق الفرنسى سلفستر دى ساسى [١٧٥٨ ـ ١٨٣٨] وقد كتب « النحو العربى » ، « المنتخب من أدب العرب » والنمساوى الفرد فون كريمر [١٨٢٨ ـ ١٨٨٩] وكتابه « ابن خلدون وتاريخه الثقافى للدول الإسلامية » ، تاريخ الآراء السائدة فى الإسلام . مفهوم الله . النبوة . فكرة الدولة » ، « تاريخ ثقافة الشرق تحت حكم الخلفاء » ثم المستشرق الألمانى « تيودور نولدكه » [١٨٣٦ ـ ١٩٣٠] وكتابه « تاريخ القرآن » ، ثم الألمانى « يوليوس فلهوزن » [١٨٤٤ ـ ١٩١٨] ومن كتبه العديدة : « أحزاب المعارضة الدينية السياسية فى عصور الإسلام القديمة » ، « الدولة العربية وسقوطها » والمجرى « اجنتس جولدتسيهر » [١٨٥٠ ـ ١٩٢١] ومن كتبه « اتجاهات تفسير القرآن عند المسلمين » ، واخراج كتاب الغزالى « فضائح الباطنية » ، والالمانى كارل هاينريش بيكر [١٨٧٦ ـ ١٩٣٣] وهو مؤسس مجلة « الإسلام » [١٩١٠] وهى « مجلة تاريخ الشرق الإسلامى وثقافته ومن كتبه « دراسات إسلامية » تتناول « الإسلام والاقتصاد » ، المسيحية والإسلام » ، « الخطوط الاساسية للتطور الإقتصادى بمصر فى القرون الأولى للإسلام » ، « نشأة أرض العشر والخراج فى مصر » وغيرها .

ومن اسبانيا هناك « اسين بلاثيوس » [١٨٧١ ـ ١٩٤٤] الذى أمضى حياته فى دراسة « ابن عربى » والإمام الغزالى فى مجلدات عديدة ، « لويس ماسينيون » الفرنسى العظيم الذى أمضى



ما يقرب من عشرين عاماً لوضع كتابه « عذاب الحلاج » وتحقيق ونشر الهاماته الصوفية والذى ولد فى [١٨٨٣ وتوفى : ١٩٦٢] وكان عضواً عاملاً فى مجمع اللغة العربية المصرى حتى عام ١٩٥٦ ، ولا يستطيع دارس دراسة التصوف الإسلامى دون المرور « بماسينيون » والفرنسى أيضاً « هنرى كوربان » الذى كتب عن السهروردى المقتول وحقق العديد من أعماله وآرثر يوحنا آربرى الذى ترجم القرآن إلى الإنجليزية بالإضافة إلى تحقيقه وإخراجه لكتاب النفّرى « المواقف والمخاطبات » .

ولا يمكننا إيراد قسط واف من أفضال المستشرقين الكبار على التراث الإسلامى والعربى وتكفينا هذه النبذة الصغيرة لنعود فنعرض بعض ما كتب قبل هذه الفترة من كتابات أملاها التعصب والجهل لمستشرقى العصور الوسيطة وبعض مستشرقى العصر الحديث ، الذين تناولوا تراث الشرق باعتباره الممثل لعدوهم التقليدى ، متناسين الروح العلمية التى تحلى بها الكثيرون من كبار المستشرقين

* * *

نمو الاستشراق الضد / شرق :

الاستشراق بتحديد دقيق ميدان من ميادين الدراسة المتفقهة الخاصة بدراسة تراث الشرق ، وفى الغرب المسيحى يؤرخ لبدء وجود الإستشراق الرسمى بصدور قرار مجمع فيينا الكنسى عام ١٣١٢ بتأسيس عدد من كراسى الاستاذية فى « العربية ، واليونانية والعبرية ، والسريانية فى جامعات باريس واوكسفورد وبولونيا وافينيون وسلامانكا » (١)

وقد دعا صاحب الاقتراح إلى تعليم العربية بوصفه أفضل الوسائل لارتداد العرب إلى المسيحية ، حيث أن فشل الحروب الصليبية المتوالى ، أفسح الطريق أمام بعض أصحاب الرؤى المعارضة ، التى ترى أن أفضل السبل لاسترداد « بيت الرب » يأتى عن طريق اقناع أهل الشام بترك الإسلام والتدين بالديانة المسيحية بغير الطرق العسكرية التى اعتمدتها الحروب الصليبية .

غير أن بداية الاستشراق تمتد إلى ما قبل ذلك باكثر من قرنين ، وهو تاريخ الدعوة الواسعة للصدام مع الشرق ، هذا الكيان الغامض ، وكان أبرز الداعين لهذا الصدام الدامى ، البابا « إربان الثانى » بابا روما وذلك فى خطبته التى القاها فى مجمع كليرمون [١٠٩٥ م] ، ولعل إيراد جزء من إحدى خطبه فى هذه المناسبة يبين الأسباب الكامنة وراء الحروب الصليبية ، إضافة إلى دعوى تحرير القدس وبيت لحم :

« وكل من ترك بيته أو أباه أو أمه أوزوجته أو أطفاله فى سبيل اسم المسيح ، سوف ينال قدرها مائه مرة وسوف يستحق الحياة الخالدة ، فلا تجعلوا أية ممتلكات تقعد بكم عن المضى فى سبيله . ولا تعبأوا بالشئون المنزلية ، لأن هذه الأرض التى تعيشون فيها ، محاطة بالبحر من كل جانب ، وتحوطها سلاسل الجبال ، وتضيق بأعدادكم الكثيرة ، وهى لا تفيض بالثروة الطائلة ، وإنما لاتكاد تحقق من الطعام ما يكفى زرّاعها فقط ، وهذا هو السبب فى أنكم تشنون الحرب ضد بعضكم البعض ، بل وتقتلون بعضكم بعضاً ... انطلقوا على طريق الضريح المقدس ، انقذوا تلك الأرض من ذلك الجنس المرعب واحكموها بأنفسكم » (٢)

لانستطيع أنكار أثر البعد الدينى فى صراع نشأ فى العصور الوسطى حيث كان الملوك والحكام يستمدون شرعيتهم من رجال الدين سواء فى الشرق أو الغرب ، غير أن اشتعال الصدام بعد قرون عديدة من استيلاء العرب على فلسطين ، يوجب التساؤل عما أخّر الاوروبيون كل هذه القرون كى يهبوا للدفاع عن « بيت الرب » فى فلسطين ، فلا شك أن الحروب الأهلية بين الإمارات والتى زادت إلى حد كبير . وكذلك المجاعات والأوبئة التى عمت أوربا قبل ١٠٩٥ (٣) ، كل هذا شكّل مجموعة من الدوافع التى جعلت ـ دعوة البابا تجد صداها لدى الفرسان والصعاليك والاقطاعيين . بحيث يحتل الفرنجة بيت المقدس قبل أن ينتهى القرن

[١٠٩٩] ، وبهذه الحملة بدأ تاريخ الحملات الدموية بين أوربا والشرق الأدنى والذى استمر أكثر من قرنين من الزمان .

ولكن بنهاية التراشق بالسلاح ، بدأت حرب جديدة على صعيد الأيديولوجيا ، وبدأ الاستشراق يأخذ شكل « بحث الشرق » عن طريق النفاذ إليه ودراسته ، غير أن هذا الدرس لم يخل بالطبع من آثار الدماء التى أسيلت على أرض مصر والشام والمذابح الرهيبة التى تبادلها الطرفان لذلك فإن الصورة العامة التى تكونت عن الشرق لا تختلف كثيراً عن الصورة التى كونها فرسان الحملات الصليبية وكهنتها وأن اختلفت فى الدرجة إلى حد ما

فلم تختلف صورة أهل الشرق عن وصف « البابا أوربان الثانى » لهم فى « ١٠٩٥ » من أنهم « جنس أجنبى ، جنس غريب على الرب تماماً »[٤] يتحلى بصفات عديدة مثل « الكفار ـ المتوحشين ـ الأميين ـ اللصوص ... الخ » .

وبعد ما تحولت الحرب إلى حرب أيديولوجية ، وأصبح الشرق مغلقاً أمام الأوربى العادى ، تحول إلى اسطورة مفرداتها مبالغات الرحالة والحجاج المتبتلين والتجار والبحارة ، بالأضافة إلى بعض الكتابات « عن » الشرق وكانت معظمها بأقلام الرهبان المتعصبين ، حيث أصبح الشرق لديهم هو « المسلم » والمسلم عكس المسيحى الكاثوليكى المؤمن ، فالأول كافر بينما الثانى مؤمن شديد الإيمان والأول « جنس غريب على الرب » بينما الثانى أحد أبناء الرب المخلصين والأول منهتك يسعى وراء اللذات الجسدية واقتناء الجوارى ، والثانى متبتل يرى الجنس وسيلة للذرية المؤمنة الخ بل إنهم جعلوا من « البدوى » بعد إضافة رتوشهم على شخصيته نموذجاً للشرق ، ثم جعلوا من التركى نموذجهم للشرق ، وهو الإنكشارى المتوحش الساعى إلى الصبية والغلمان .. الخ ولعل بقايا هذا التصورمازالت قائمة بعد أن أصبح الشرق يكتظ بالنفط والأمراء المترفين حتى ان استاذاً باكاديمية « دى لينش القومية ـ روما » يقرر فى أحد أبحاثه :

« ولابد أن أعترف بكل خجل ، أنى التقى فى عصرنا هذا ، بأناس يرغبون فى قراءة ترجمة للقرآن ، وخاصة « سورة النساء » أملاً فى العثور فيها على ما لا أعرفه من الأوصاف للذَّات الشرقية المحرمة »[٥] .

وبعد ترجمة بعض كتب الأدب الشرقيةوعلى رأسها « ألف ليلة وليلة » أصبحت هذه الليالى مفتاح الشرق لمن يريد التعرف عليه ، واعتبرها المهتمون بالشرق انها « تكسبهم معرفة بشئون الشرق الدينية وأوهامهم ، وكذلك « معرفة خاصية الطباع الشرقية ومبادىء الدين المحمدى »[٦]

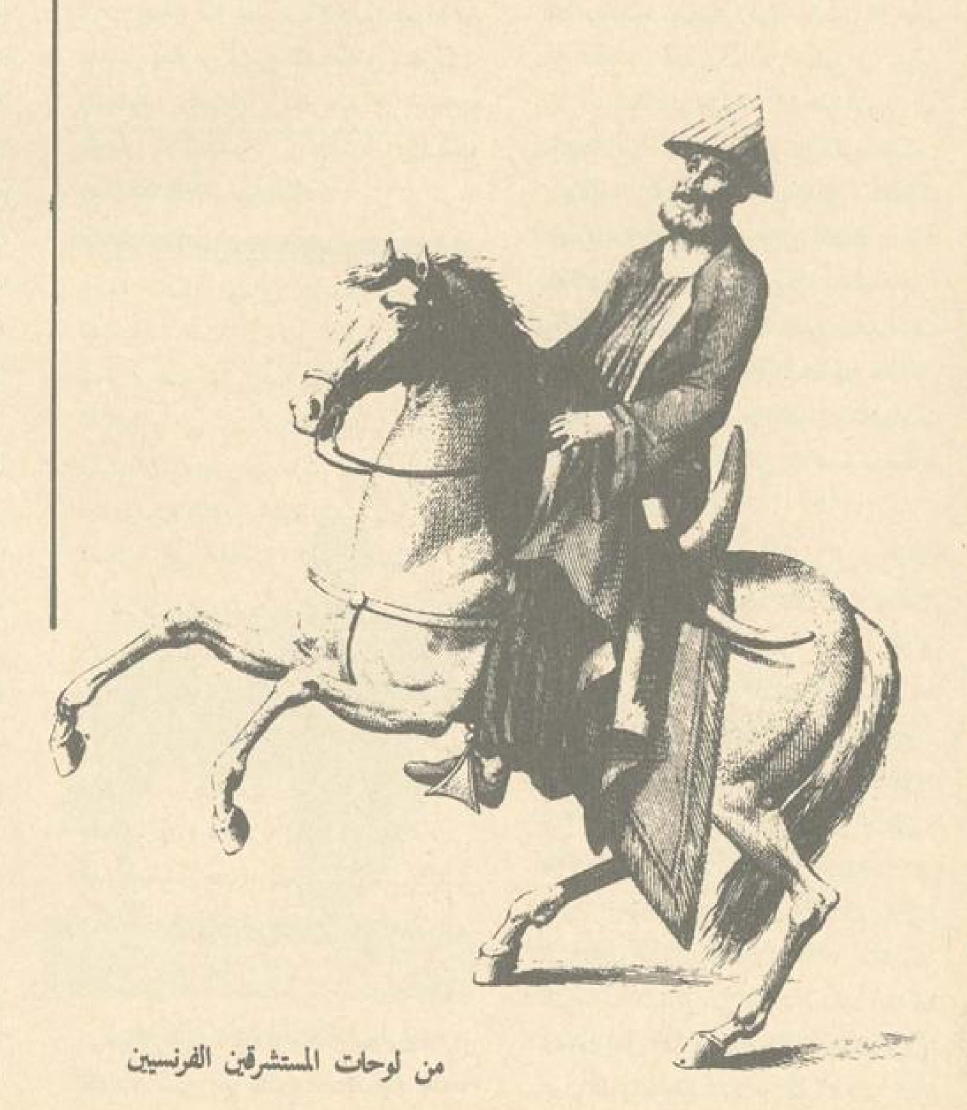
ولم تستطع ذاكرة المفتونين بألف ليلة وليلة . أن تغفل « صورة الشرق » التى تقف حائلاً بينهم وبين أى إبداع شرقى ، ففسرها « ارنست هنلى » بأنها تمثل « الاخفاق المطلق للإسلام بوصفه قوة تدعو للاستقامة الأخلاقية »[٧] ، وعلق عليه آخر (الكسندر وليم كنكليك) فردَّها إلى أصول إغريقية وقال مؤكداً « أن هذه القصص تكشف عن معرفة كاملة ومألوفة بالاشياء الآسيوية ، لكن فيها من الحياة والتدفق الحيوى ، والكثير من الشخصية الأوربية النشطة المتوثبة ، ما يشير إلى أنها لا يمكن أن تكون من صنع مجرد شرق ، الذى هو فى القضايا الإبداعية شىء ميت يابس »[٨] .

هكذا صنع رواد هذ الجانب من الاستشراق « شرقاً » يختلط فيه الدين والسحر والشبق الجنسى ، شرقاً بلا تراث . لأنه يعيش ـ ابداً ـ ماضيه ، وبلا عقل لأنه يعيش بالغريزة وبلا مستقبل لأنه كيان سرمدى مطلق ، غير قابل للتغيير أو التطور ، شرقاً واحداً تتوحد فيه الأجناس والثقافات وأنماط الإنتاج ويتوقف عند نقطة الصفر لايتجاوزها وهى المنطقة التى وضعه فيها متعصبوا الغرب طوال ما يقرب من الف سنة .

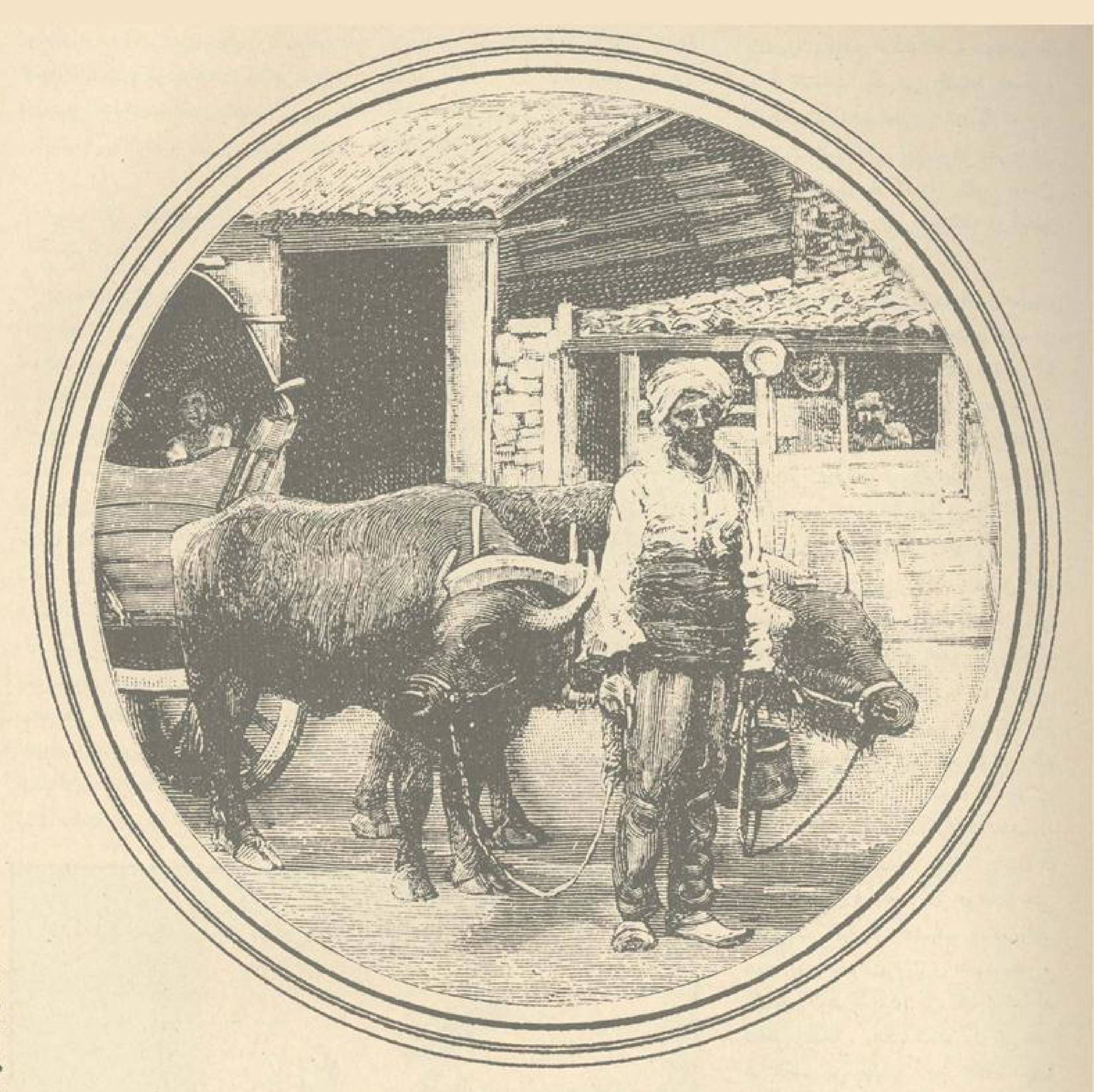
* * *

جانب آخر من معرفة الشرق :

إذا كان وجه الإستشراق القبيح قد صنع هذا الشرق الذى عرضنا له عرضاً موجزاً ، إلا أننا نقع فى نفس منزلق هذا النوع من الاستشراق عندما نرى فى الغرب كلاً واحداً فى عدائه للشرق ، فلا شك أن عشق الشرق قد ملأ أفئدة الكثيرين ، خاصة بعد أن اتسعت المسافة بين زمن الحروب الصليبية وعصر النهضة ثم العصر الحديث ، الذى انجب ظاهرة « مرض الشرق » الذى أصيب به كثير من الفنانين والمفكرين والشعراء ، وهو المرض الذى ساق بعضهم إلى



من لوحات المستشرقين الفرنسيين



التجوال فى الشرق ، فى محاولة رومانسية لإقامة علاقة حب مع « شرقهم » الذى أحبوه ، والذى يسكن مخيلاتهم ، أو كان عشقهم له نتيجة لأزماتهم مع مجتمعاتهم الغربية ، حيث قدم لهم الشرق دائماً باعتباره « عكس » الغرب [مصدر أزماتهم ومجال تمردهم] ولعل كتاب « ادوارد سعيد » (الاستشراق) من أكثر الكتب احتشاداً بذكر « مرضى الشرق » رغم محاولته توظيف هذا المرض لدحض الاستشراق كمؤسسة أيديولوجية لا يرى فيها سوى وجهها القبيح .

غير أننا يمكننا ملاحظة أن معظم مصادر « مرض الشرق » تقع ضمن دفاتر الماضى « المتخيَّل » ، الماضى الذى أثار حفيظة أوربا الصليبية هو نفسه الذى يفتن أوربا العصر الصناعى . ومن النادر ان نجد مريضاً واحداً بمرض الشرق يتوجه بعشقه إلى الشرق المعاصر ، الحى ، والملىء بالمتناقضات والصراعات بعيداً عن الخلفية التى تربض فيها الجياد والأبل والمضارب التى تجوس فيها خيالات النساء المنقبات ، والساحات التى تكتظ بالشعراء والمتصوفة !

ولعل آخر مرضى الشرق من المفكرين الكبار « روجيه جارودى » ، يمكنه أن يمدنا « بتصور » عن الشرق يؤكد ما ذهبنا إليه من أن الافتتان بالشرق لا يساهم فى تحطيم أسوار الجيتو الذى سجن فيه الشرق إلا إذا اتخذ هذا الافتتان شكل الحوار والجدل مع الشرق دون تهويمات من الذاكرة .

فالشرق عند جارودى هو ذلك الكيان الذى يفوق أوربا بفضل « حكمة الصين وأفريقيا والهند والإسلام »[9] . كما أن تجربة الشرق تختلف عن تجربتهم ذات النزعة « التقنية » حيث هى « تجربة حية . شعرية وصوفية)[10] . بل أنه فى نقده لمجتمعه يقول فى المذهب الإجتماعى الكنسى للفاتيكان .

« كان يعتبر الملكية « حقا طبيعياً » . ويدين « الاشتراكية من حيث مبدؤها . ولا يدين الرأسمالية إلا من حيث غلوّها ، وكما لو أن غرضه تحقيق رأسمالية ذات سلوك إنسانى »[11]

فمن الواضح أن جارودى أسقط رؤيته الخاصة عن الشرق الذى يراه « تجربة حية شعرية وصوفية »

واشتراكي «بالسليقة» وهي رؤية بعيدة عن الواقع ، لا ترى فى الشرق سوى «الاحتياطى الصوفى والشعرى» لمن يسقط فى معركته داخل مجتمعه من متمردى ومفكرى الغرب .

* * *

«جيتو» فى مواجهة العصر [ضد الاستشراق] :

من المعروف أن الحضارة الإسلامية كانت نتاجاً لصدام بين ثقافة عربية [أو ثقافات] استوطنت شبه الجزيرة ، وبين حضارات قديمة ومتكونة خارجها ، تمركزت فى مصر والشام والعراق وفارس والهند ، وكان هذا الصدام عسكرياً دامياً فى بعض مراحله ، ولكنه فى مجمله كان تفاعلاً حضارياً ، أنتج حضارة جديدة ، حملت رسالة التقدم الإنسانى من الحضارات السابقة إلى الحضارة الأحدث فى أوربا ، ورغم سيادة الإسلام - كدين - فى بعض مواطن هذه الحضارات أو معظمها ، إلا أن الهوية الخاصة بهذه الشعوب القديمة ظلت حية ، بعد أن تجددت دماها بفعل الثقافة الجديدة الوافدة ، والحوار الذى تم بينها وبين مثيلاتها من الحضارات التى ضمتها الأمبراطورية الإسلامية ، فذاكرة الشعوب ليست متطابقة بالضرورة مع ذاكرة نخبتها أو كتابها ومثقفيها ، كما أن مصادر الثقافة الشعبية لا تقتصر على ما هو مكتوب أو مدون ، فهى منظومة شديدة التعقيد ، تضم سائر تاريخ ومأثورات وأنماط انتاج الشعب السائدة والاستثنائية ، وبالتالى فلا يمكن لثقافة وافدة ولو كانت مدعومة بالقوة ، أن تطمس ذاكرة شعب ما ، إلا إذا اندرج هنا الشعب بكامله ولأجيال عديدة ، ضمن هذه الثقافة الوافدة واستطاعت أيضاً هذه الثقافة الوافدة ، التفاعل الجدلى مع ما هو أصيل فى هذه الشعوب ، وينتج عن هذا الحوار ، ثقافة جديدة ، تحتوى الأصيل والوافد فى منظومة تنتمى فى خطوطها العريضة إلى ما هو محلى [التاريخ - الجغرافيا - علاقات الإنتاج وأنماطه ..] .

وهناك ، فى الشرق بعض الأصوات التى تدعو إلى وضع الشرق بكامله داخل «جيتو» كبير بمعزل عن العالم الغربى الشرير ، خاصة بعد أن كشفت عن وجهه المتعصب الاستعمارى الإستشراق ، وهذه الأصوات قد تضم بعض أصحاب الأفكار ذات المظهر الراديكالى ، كما أنها تضم كل أصوات الاصوليين .

فالاتجاه الأول يرى فى الإستشراق ، وسيلة للسيطرة على الشرق [ادوارد سعيد مثلاً] ، كما يراه باعتباره حلقة واحدة متصلة ، يراه كلاً .. مطلقاً سواء فىمرحلته الأوربية أو الأمريكية ، الصليبية أو الحديثة .. وهو رأى يضع الأفكار والتصورات موضع السلطة الفعلية ، ويجعل منها بديلاً للمعونات والقروض والقواعد العسكرية والنظام الإقتصادى العالمى .. الخ كما أنه يؤبّد الهوية الإستشراقية التى تكونت فى عصر ما قبل وسائل الإتصال الالكترونية والليزر ووسائل التصنت عن بعد ، وهو ما سنناقشه فى السطور الأخيرة من موضوعنا .

الإتجاه الثانى يرى الاستشراق «صليبياً» يستهدف الإسلام كهدف ثابت منذ ما يقرب من عشرة قرون ! وقد تبارى فرسان هذا التيار فى الرد على الأفكار الاستشراقية ، بعد أن ألحقوا بها سائر العلوم والفنون الحديثة ! وبالتالى أصبحوا يحاربون عصرهم ، ويعيشون فى جيتو ترتفع أسوارة إلى ما يقرب من خمسة عشر قرناً من الزمان .

يتفرع من هذا الإتجاه ، إتجاه يرى أن كل منجزات الغرب التى يبهرنا بها الآن ، هى فى الأصل منجزات إسلامية عربية ، ويأتون بأمثلة على ذلك «فابن خلدون» هو الرائد الحقيقى لعلم الاجتماع والتاريخ ، وأبن سينا «والرازى» هما رائدا علم الطب «والجرجانى» رائد البنيوية واللسانيات وعلم الجمال ، «وآبن فرناس» رائد علوم الطيران .. الخ وهم يرون - نتيجة لهذا - انه ما علينا إلا أن نكتفى بتراثنا ونجدده ، وماعلينا إلا أن نغترف منه كل ما نريد ولأى عصر ، وهؤلاء يتناسون أن النسق الحضارى فى المجتمع ككل هو الذى يعطى لأطروحات العالم أو الفيلسوف عمقها ومجال عملها وديمومتها واستمراريتها فى المجتمع والتاريخ الإنسانى ، وهم لا يفرقون بين كتابة إبداعية قد تتخطى عصرها ، ويمكنها الكشف فى كل عصر عن الكامن من جمالياتها ، وبين الكتابة العلمية التى ترتبط دائماً بعصرها ، وعندما يمر عصرها دون الاستفادة منها فى الواقع ودون تطويرها بعد ذلك ، فسوف تظل خارج تاريخ الفعل البشرى وأن ظلت قائمة فى تاريخ جنسها المكتوب ليس أكثر .

ونحن لا يمكننا بالطبع أن نقطع ببراءة الاستشراق فقد كان لبعضه مهام تبشيرية واستعمارية ، ولكننا لا يمكن أن نطلقه خارج التاريخ أو فوقه ، فالاستشراق ، كما نقل الينا وكما عرف عنه أصبح الآن تقريباً فى ذمة التاريخ ، فلم يعد تحقيق النصوص أو تحليل التاريخ وسيلة للسيطرة الاستعمارية ... كما أن المواطن الغربى لم يعد يستمد تصوره عن الشرق من المستشرقين وهذا ما سنحاول ايضاحه فى السطور التالية .

* * *



من لوحات المستشرقين الفرنسيين

شرق وغرب أم شمال وجنوب :

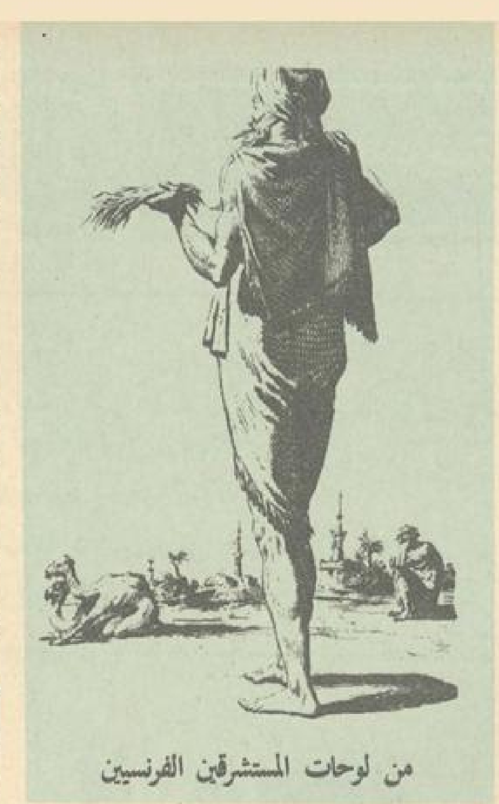
من الواضح أن تاريخ العالم بعد حربين استعماريتين [١٩١٤ ، ١٩٣٩] قد تغير مساره عما قبله ، فبنهاية الحرب الثانية فى ١٩٤٥ إنتهت تقريباً عصور الإستعمار التقليدى ، وتراجعت القوى الكبرى الإستعماريه (أوربا الغربية) لتفسح المجال للإتحاد السوفيتى كقائد للمعسكر الاشتراكى ، والولايات المتحدة كوريث لأوربا الغربية فى السيطرة على مستعمراتها بالاضافة إلى مستعمرات أمريكا « التقليدية » فى امريكا اللاتينية .

وبنهاية عصر الإستعمار الأوربى ، ، انتقلت « رسالة » الغرب إلى الشاطىء الآخر من الإطلنطى فى الولايات المتحدة ، وإنتهى بذلك عصر كامل من الإستشراق « التقليدى » ليبدأ عصر جديد ، فى مجال عمله .. وفى أساليب العمل وفى الوسائل .

فالمستشرق الذى كان ينهض بدور هو أقرب الأدوار إلى الزهاد ، أو يقوم بدور الرجل السياسى أو العسكرى أو الدبلوماسى ، أو الذى يقوم بالتجسس وحبك المؤامرات : أو العمل فى توكيلات الشركات الأوربية التى تستغل الشرق ... الخ ، كل هذه « الادوار » التى تقمصها المستشرقون أو تقمصتهم لم تعد موجودة تقريباً ، فهناك من الوسائل الجديدة التى أصبحت علامة على عصرنا ، ما يمكنه من القيام بهذه الأدوار مجتمعة وبأيسر السبل . فإذا كان الإستشراق التقليدى ، قد حاول غزو عقول النخبة التى كانت مجال عمله فإن الاعلام الأمريكية وأنماط الاستهلاك التى تطرح فى المجتمعات الشرقية المتخلفة بفعل سيادة النموذج الأمريكى واندراج هذه المجتمعات ضمن السوق العالمى الرأسمالى ، كل هذه الوسائل يمكنها القيام ـ وفى نفس الوقت ـ بغزو النخبة والعامة معاً .

فعندما كنا نشاهد ـ ونحن صبية ـ فيلماً أمريكياً يصور « الشجاع » الأبيض ، وهو يعود بحصانه ليلحق بمجموعة من الهنود المتوحشين ، قبل أن يسلخوا رؤوس أسراهم البيض ويبلغوا « مأربهم » من الجميلة البيضاء ، كنا نصفق بشدة للفارس الأبيض ، فى الوقت الذى تقفز فيه من كراسينا متوعدين الملون الهندى شاعرين بكراهة عميقة وحقد طاغ تجاه الهنود الحمر ، مع أننا لم نكن قد رأينا ـ قط ـ هندياً حقيقياً طوال حياتنا .

وإذا أخذنا فى الإعتبار سائر وسائل الإعلام المحلية والأمريكية ـ بما فيها الأقمار الصناعية ـ التى



من لوحات المستشرقين الفرنسيين

تصور أمريكا لدى الشرقيين كجنة الله على الأرض ، ومنبع النظم الديمقراطية ، وحامية العالم « الحر » ، وذلك عن طريق « وكلاء » من الداخل أو مستشرقين « محليين » دون الزج بأبنائهم فى مجاهل الشرق الرهيبة ، كل ذلك يؤكد أن النموذج « الاستشراقى الاستعمارى » التقليدى قد أصبح فى ذمة التاريخ ، رغم نقدنا الدائم له !

ولعل الفرق بين الإستشراق الإستعمارى فى العصر الحديث ، والاستشراق الأمريكى هو نفسه الفرق بين الاستعمار التقليدى الذى يتخذ شكل الجيوش والمستوطنين والتوكيلات الملاحية .. والاستعمار الجديد ، » الذى استبدل البندقية بالقمح ، والتوكيلات الملاحية بالشركات متعددة الجنسية ، والمستشرق بالاقمار الصناعية ووسائل الإعلام .

لذلك فعندما نستبدل الشرق بالجنوب والغرب بالشمال ، فإننا لا نعدل فقط فى الحدود الجغرافية للاستشراق ، بقدر ما نستبدل رؤية مثالية أحادية له ، بأخرى نحاول القبض على ما هو راهن وحقيقى وموجود .

فقد نشأ مصطلح الشرق والاستشراق فى أحضان العصور التى غلب عليها الطابع الدينى ، وكان التفاوت بين الشرق والغرب أقرب إلى « الإختلاف » فى الأطر الأيديولوجية منه إلى التفاوت الحضارى بينما نشأ مصطلح « الشمال والجنوب » فى عصر التفاوت الرهيب التقنى والحضارى بين مجموعتين من سكان الأرض .

واتسع هذا المدلول ليشمل ما هو اقتصادى على ما هو حضارى وأيديولوجى ، كما أن هناك مناطق شاسعة من الكرة الأرضية أصبحت هدفاً للمرحلة الجديدة من الاستشراق (أو الهيمنة) ـ أفريقيا ـ أمريكا اللاتينية ـ لم تكن موجودة من قبل على خريطته .

لهذا فقد فقَد الاستشراق الجديد مدلوله الدينى والعرقى وأصبح التفاوت بين الشمال والجنوب تفاوتا فى الرأسمال والتقدم التكنولوجى وحقوق الإنسان ، وهو ما يجعل من مأزق الجنوب (الشرق سابقاً) مأزقاً مركباً وغاية فى التعقيد . لن يتأتى لبلدان الجنوب [أو العالم المتخلف] الخروج منه ، إلا بإحداث تغيير جذرى فى النظام العالمى كله ◆

هوامش :

(١) عن « الإستشراق » : المعرفة السلطه الانشاء ـ ادوارد سعيد ـ ط ٢ ١٩٨٤ بيروت ـ مؤسسة الأبحاث العربية ص : ٨٠ ـ ترجمة : كمال أبو ديب

(٢) الحروب الصليبية : نصوص ووثائق ـ د قاسم عبده قاسم ـ ١٩٨٥ ـ العربية للدراسات والنشر ص : ٧٩

(٣) راجع : الصليبيون فى الشرق ـ ميخائيل زابيوروف ـ ١٩٨٦ ـ موسكو ـ الفصل الأول

(٤) الحروب الصليبية : نصوص ووثائق ـ سبق ذكره ـ ص : ٧٨ ـ ٩٢

(٥) الصورة الأوربية عن الحضارة العربية والاستجابة لهذه الصورة ـ عرض تاريخى وتفسير ـ اليساندرو بوزانى ـ من كتاب « العلاقات بين الحضارتين : العربية والأوربية » وقائع ندوة همبورج ـ ١١ ـ ١٦ إبريل ١٩٨٣ ـ الدار التونسية للنشر ـ ١٩٨٥ تونس ـ ص : ٧٥

(٦) الوقوع فى دائرة السحر ألف ليلة وليلة فى النقد الأدبى الإنجليزى ١٧٠٤ ـ ١٩١٠ د محسن هاشم الموسوى ـ ١٩٨٢ ـ منشورات وزارة الثقافة والإعلام ـ بغداد ـ سلسلة دراسات ٢٩٩ ـ ص : ٦٨

(٧) نفس المصدر

(٨) نفس المصدر

(٩ ، ١٠ ، ١١) حوار الحضارات ـ روجيه جارودى ـ ط : ٣ ١٩٨٦ ـ منشورات عويدات ـ بيروت ـ باريس ص : ٢٦٠ ـ ٢٦٦ ـ ترجمة : عادل العوّا

(١٢) راجع العرب والنموذج الأمريكى ـ د فؤاد زكريا ـ ط ١ ـ دار الفكر المعاصر ـ القاهرة ١٩٨٠ حيث يناقش الكتيب النموذج بشكل شامل ◆